من تراب (٢٧١) حضانات الزمن الجميل ! (*)

الطريق!

فى عام ١٩٢٥، وهو العام الذى تخرج فيه أبى - رحمه الله - فى مدرسة الحقوق الملكية، حسب مسمّى كلية حقوق القاهرة فى ذلك الزمان، اكتمل إنشاء الجامعة المصرية الحكومية وأنشئت كلية الحقوق إلى جوار كلية الآداب، وإن ظل طلاب الكليتين يدرسون معا فى السنة الأولى برنامجا تحضيريا فى الأدب والتاريخ وعلم النفس والاجتماع واللغات الكلاسيكية .. فى ذلك العام جمع الصف الدراسى بكلية الحقوق بين عبقريتين فذتين ملأتا الحياة فيما بعد : أستاذى الجليل محمد عبد الله محمد، والأستاذ الكبير محمد مندور .. كلاهما عمل بالمحاماة وظلاّ يلتقيان من وقت لآخر، وإن رجح النقد والأدب فى حياة محمد مندور، دون أن يترك المحاماة، بينما لم يحل القضاء أولا ثم العمل بالمحاماة بين محمد عبد الله محمد وبين أن يقدم كتابه غير المسبوق فى معالم التقريب، ولا ديوانى شعره : " العارف " و " الطريق " .

يحكى محمد مندور فى حديثه إلى الأستاذ فؤاد دواره (كتاب عشرة أدباء يتحدثون) - أنه فى تلك السنة التحضيرية التى جمعت بين طلاب الحقوق والآداب، حاضرهم الدكتور طه حسين فى " الشعوبية وانتحال الشعر " .. معلنا للطلاب أنه سيلقى عليهم المحاضرة فى ثلث ساعة، ثم على كل طالب أن يكتب ملخصا لها فى مدة لا تزيد على خمس دقائق .

(*) المال٢٠٠٩/٦/٣

أتاهم الدكتور طه حسين ليعلن عليهم فى اليوم التالى أن أحسن تلخيص قرأه هو ما كتبه الطالب محمد عبد الحميد موسى مندور، واستدعاه لمقابلته بعد المحاضرة، وهنا سبب ما أرويه لك ..

سأله الدكتور طه حسين عن الكلية التى طلب الالتحاق إليها، فلما أجابه محمد مندور بأنها كلية الحقوق، سأله : لماذا ؟ فأجبه : ليصير وكيلا للنيابة . هنا قهقه الدكتور طه حسين وهو يسأله : لماذا وكيلا للنيابة بالذات ؟ فأجابه محمد مندور لأنه الرجل الذى تهتز له بلدتنا كلها عندما يحضر إليها .

" أما فلاح صحيح " .. عبارة أطلقها الأستاذ الدكتور وهو يراجع تلميذا بالسنة الأولى لا يعرفه، ويعطيه اهتمامه ووقته .. أتبعها بنصحه بالالتحاق بكلية الآداب لأن لديه استعدادا أدبيا ملحوظا لا شك فيه . ولكن الطالب يصمم على كلية الحقوق ولا يستجيب لنداء الأستاذ ! فهل ضاق به الأستاذ أو صرف عنه النظر ؟!

يجيب محمد مندور بأن الدكتور طه حسين جعل يحاول إغراءه بأنه سوف يتفوق فى الآداب وسوف يسافر بعد تخرجه فى بعثة إلى أوروبا ثم يعمل أستاذا بالجامعة، ولكن يأبى محمد مندور إلاّ الإصرار على ما يريد، فلا يغضب الأستاذ، ولا يضيق صدره، ولا ييأس، ولا يضن على التلميذ العنيد بوقته، ويمضى لأداء رسالته فى احتضان من ارتأى فيه موهبة جديرة بالاحتضان، فيقول له :

" أما فلاح مخه ناشف . طيب يا سيدى، ابق فى الحقوق كما تريد، ولكن على أن تلتحق بكلية الآداب فى نفس الوقت، وأنا أتعهد بإعفائك من مصروفات كلية الآداب، ولن يصعب عليك الجمع بين الكليتين لأن الدراسة بعد السنة الإعدادية ستكون فى الصباح بالحقوق، وبعد الظهر بكلية الآداب".

باقى القصة معروف، فقد جمع محمد مندور بنجاح بين دراسة الحقوق والآداب، وحصل على إجازة الآداب بقسم اللغة العربية وكان ترتيبه الأول سنة ١٩٢٩، ثم أتم دراسته فى قسم الاجتماع وليسانس الحقوق سنة ١٩٣٠ حيث تخرج مع الأستاذ الكبير وأول الدفعة الدكتور محمد عبد الله محمد، وصار محمد مندور علما من أعلام الأدب والنقد وأستاذا وشيخا لجميع النقاد منذ كتابه اللافت الذى حصل به على الدكتوراة : " النقد المنهجى عند العرب " .

هكذا كانت الدوائر الحاضنة فى ذلك الزمن الجميل، ولو لم يتوقف الدكتور طه حسين ويعطى ما أعطاه من اهتمام ورعاية لمن توسم فيه الموهبة الأدبية، لربما حرمت الحياة الأدبية والنقدية من العطاء الغامر الرفيع الذى أعطاه الدكتور محمد مندور .

نضوب الدوائر الحاضنة فى زماننا، يورى بالانكفاء على الذات، وانقطاع التواصل بين الأجيال .. ظنى أن أستاذية طه حسين للأدب العربى ترجع إلى ما أعطاه وهيأه من تواصل مع تلاميذه، بالتوازى مع ما كتبه وأبدعه فى الثقافة والأدب العربى .